الترجمة بين نبض التثاقف وسلطة التعالم

أ . عبد اللطيف حني*

بسط منهجي:

شكلت الترجمة منذ زمن بعيد حلقة الوصل والتواصل بين مختلف الحضارات والثقافات؛ لأنها نشاط إنساني يعمل على تبادل المعارف والخبرات ، لتحقيق آفاق واعدة بالتطور والرقي ، وقد لفتت انتباه الدارسين والناقدين لها فراحوا ينتجون خطابات كثيرة حولها ، ويساءلونها عن نظرياتها وأشكالها وأنواعها .

كما اجتهد الدارسون في ربط الترجمة بإشكالية المثاقفة Acculturation والعولمة Globalisation ، خاصة في عالمنا العربي التي أضحت تشكل رهانا كبيرا على مستوى فرض لغة المثاقفة النابضة بالحركية ، ولغة الحوار بين الثقافات والحضارات ، وبالتالي ينحصر دورها في ظل قوة العولمة الجارفة التي لا تعترف بالخصوصية اللغوية ، أو مكونات الهوية الوطنية أو الأبعاد الثقافية والحضارية للشعوب ، وتشجيع إلغاء الآخر وفرض الهيمنة والاختراق .

لهذا تسعى المداخلة إلى محاولة البحث في مفهوم وأنواع الترجمة ، وربطها بإشكالية المثاقفة والعولمة Acculturation et Globalisation والايدولوجيا المعاصرة ، إلى جانب البحث عن مدى مساهمة الترجمة في خلق لغة المثاقفة ولغة الحوار بين الحضارات والثقافات ، وتبين موقفها من العولمة Globalisation ، التي تعمل على إلغاء الخصوصية اللغوية والهوية الثقافية ، والشخصية الحضارية للأمم ، وتدحض فكرة التوازن لصالح الهيمنة والاختراق وتكريس الثقافة الواحدة .

كما تجتهد المداخلة لتبين أن الترجمة وسيلة للحوار بين الثقافات ، وقادرة على خلق مثاقفة متوازنة تنبني على الاغتناء المتبادل لا على الإلغاء

* المركز الجامعي ، بالطارف.

والتفاضل ، وتسعى الترجمة إلى مد الجسور الواصلة بين الثقافات ، وتحدي العولمةGlobalisation وهي تروج لأسطورة الثقافة العالمية الواحدة .

و لهذا ستعتمد المداخلة على أربعة محاور وهي:

1 ـ مفهوم الترجمة كبعد تقني معرفي .

2 ـ الترجمة في ظل نبض المثاقفة .

3 ـ الترجمة وسلطة العولمة .

4 ـ الترجمة والأيديولوجيا .

1 . مفهوم الترجمة كبعد تقني معرفي:

حاولت العديد من الدراسات التي توجهت إلى عالم الترجمة ، الوقوف على تعريف تقني علمي لهذا المصطلح ، طموحا منها إلى وضع حدود مفهومية مضبوطة لها ، وهي في الأغلب الأعم تتفق أن كلمة ترجمة تعني « **الإيضاح والتفسير لما عَجم واستغرب ، وقد بقي هذا التعريف سائدا ومعروفا على مدى فترة طويلة من الزمن وتحديدا منذ بدء العرب بترجمة آثار الإغريق القدماء والفلسفة الهندية في عهد الدولة العباسية التي شهدت أكبر حركة ترجمة عن اليونانية والفارسية** »[1] والتي كانت سببا في دفع حضارتها ، وإدخال عدة معارف وعلوم استفاد منها المسلمون في حياتهم الجديدة ، التي أصبحت تستنشق رحيق سحرها من مختلف حضارات العالم عبر قناة الترجمة ، التي حملت معها كل معلم بغض النظر عن إيجابيته أو سلبيته ، « **في حين بدأ عصر الحداثة في ميدان الترجمة مع ظهور دراسات فقه اللغة أو الألسنية التي وجدت النور على يد المفكر السويسري فرديناند دو سوسير** »[2] .

على هذا الأساس يمكن القول أن دوسوسير هو أول من أطلق عجلة الدراسات والبحوث في ميدان اللغة ، لا سيما في تقديم مفهوم الدلالة (العلاقة بين الدال والمدلول SIGNIFIER SIGNIFIED AND) ، فرؤية

(1) محمد عطية ، علم الترجمة ـ مدخل لغوي ، دار الثقافة الجديدة ، القاهرة ، مصر ، 1986 ، ص 42 .

(2) يحيى أبو ريشة ، الترجمة التطبيقية ، دار الهلال للترجمة ، إربد ، عمّان ، 1999 ، ص 23 .

دوسوسير للغة كنظام متكامل يعتمد على بنية متصلة العلاقات ، يوحي بأنها منتج تعبيري تواصلي بين المتخاطبين ، وعليه فإن الترجمة لم تعد « تقنية تفسيرية بل تقنية معرفية؛ أي أنها جزء من آلية إدراك الفكر الإنساني ، أو بمعنى آخر عامل إبستمولوجي وسيط بين مكون معرفي وآخر ، لا ناقل يشترط الأمانة بمعناها الحرفي بل بمعناها الدلالي ، مع أن هذا المفهوم يجبرنا على مواجهة ما يسمى بالسياق اللغوي ، وتفصيلاته الكثيرة على أساس توزع النص على مساحة كبيرة من العلاقات الداخلية بين مكونات النص اللغوية ، والتي بدورها تقرر دلالة النص طبقا للمكون المعرفي للغة دون آخر ، ودون تجاهل البعد الاجتماعي والفردي لكاتب النص ، فاللغة أولا وأخيرا آلية اجتماعية تواصلية ، طبعا هذا بدوره يضع المترجم أمام إشكالية بمنتهى الخطورة ألا وهي (خطاب النص) »[1] .

و من التعاريف الشائعة للترجمة تعريف هاوس الذي يعتبرها « إبدال نص مكتوب باللغة المنقول منها إلى نص مكتوب باللغة المنقول إليها ، النص الثاني متكافئ والأول من حيث الدلالة ومن حيث الذرائعية ، ويصبح عندها المفهوم المفتاح في هذا التعريف هو مفهوم التكافؤ وخاصة التكافؤ الوظيفي ، حيث أن الوظيفة في هذا السياق هي أن تستعمل نصا في حدود مقام معين ومن ثمة فإن نصين يكونان متكافئين إذا ما كانت وظيفتهما متكافئتين »[2] .

تتصف الترجمة بأنها عمل تقني معرفي ، لكونها تتناول بصفة مباشرة المخزون الثقافي والأدبي للنص ، وتعمل على إعادة استظهاره واستجلاءه ، إذ النص يعكس ثقافة المجتمع ويجسد تفكيره وعاداته وتقاليده ، بكافة شبكاته المعقدة والمتعددة التي تخطت صيرورة التاريخ ، والمساحات الجغرافية ، وتغلغلت في العلاقات بين الأفراد؛ أي أنه ذاكرة حية ممتدة تنبض بحياة المجتمع ، لأنها ملخصة لنظامه المعرفي والثقافي ، فالنص عند **النقاد من أصحاب المدرسة التاريخية في النقد الأدبي ومنهم الماركسيون مرآة صادقة مفصلة لتقاسيم وجه المجتمع بكل حيثياتها .**

(1) محمد الديداوي ، علم الترجمة بين النظرية والتطبيق ، دار المعارف للطباعة والنشر ، سوسة ، تونس ، 1992 ، ص 112 .

(2) LAROSE Robert, Théories contemproaines de la traduction,4 _ Presses de l'Université du Québec, 2ème édition, 1989, p 58 .

تطرح الترجمة إشكالية في « كونها تقديم لنظام معرفي كامل داخل نظام آخر مختلف ، وأوضح دليل على هذا النصوص الفكرية ، وتحديدا الدينية المدعومة بدائرة القداسة التي لا تتيح للمترجم الحرية ، وربما حرمانه من أبسط حقوق الاجتهاد ، لا سيما أن النصوص الدينية في لغتها الأصلية تحمل إشكالية أخرى ألا وهي التأويلية ، فالنص أيا كان هو مجموعة من العلاقات اللغوية التي تخدم فكرة أو مجموعة أفكار ، أو مفاهيم قابلة للتفسير أو التأويل ، مما يمهد لتطويع النص لقراءات جديدة أو تأكيد قراءة ما ، وهذا يقودنا للحديث عن الترجمة كفعل تأويلي »[1] .

كما تعد الترجمة فعلا تأويليا « لأنها تخضع النص المنتمي لنظام لغوي مختلف لعملية القراءة الاستثنائية التي بدورها تحيل النص إلى مدركات واضحة قابلة للنقاش والمقاربة بما في ذلك المقاربة النقدية . إذن ومن باب المنطق الترجمة هي فعل قراءة والمترجم هو بالأصل قارئ تنطبق عليه شروط تلقي وتأويل النص » .[2] .

تكمن أهمية الترجمة في أنها تقنية نشطة ، ومتميزة في ربط التواصل الحضاري بين مختلف الأمم « بعد أن تفرعت الألسن ، وذلك أن الحاجة اقتضت منهم أن يتخاطبوا مستعملين الترجمة كواسطة »[3] للتواصل والتبادل بجميع مستوياته ، حيث استطاعت الترجمة بمكانتها المتميزة والإستراتجية أن تمد البشرية جمعاء بالعلوم والآداب « بعد أن سبقت رحلتها إلى شاطئ الاستقلالية مرحلةٌ ليست بقصيرة جعلت منها مجالاً متأرجحاً أميل إلى التبعية والفرعية ، واليوم تشهد الترجمة تطوّراً ملحوظاً ، تعبّر من خلاله عن دورها الريادي في تعميق أواصر التواصل ، والأخذ والعطاء بين شعوب المعمورة » .[4] .

---

(1) محمود إسماعيل عمار ، معايير متقدمة حول الترجمة في النقد القديم ، مجلة علامات في النقد ، مجلد 12 ، يونيو 2003 ، جزء 48 ، ص 81 .

(2) أحمد جوهري ، درس الترجمة ـ نحو منهجية متماسكة لديداكتيك الترجمة العلمية ، مطبعة مصعب ، مكناس ، المغرب ، 1995 ، ص 125 .

(3) محمد الديداوي ، الترجمة والتواصل ـ دراسات تحليلية عملية لإشكالية الاصطلاح ودور المترجم ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط 1 ، 2000 ، ص 05 .

(4) ياسر إبراهيم ، الترجمة بين الاستقلالية والتبعية ـ اعتباطية مفهوم الترجمة كعلم مستقل ، مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية ، سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية ، سورية ، المجلد 29 ، العدد 1 ، 2007 ، ص 152 .

لقد دفع الازدهار العباسي الترجمة التي شجعها المأمون بطريقة ذكية وملفتة للانتباه ، وذلك باستقطابه للمترجمين فقد كان « يمنح المترجم وزن الكتاب المترجم ذهباً ، ليست أقلّ شأناً ممّا تتمتع به الترجمة في أيامنا هذه من أن ترجمة كتاب حديث العهد يعدّ أثراً بعيد المدى كالذي يؤلّف كتاباً تخصصياً . لقد ذهب بعض المنظرين في مجال الترجمة إلى اعتبار مفهوم التخاطب برمّته ـ مكتوباً أو شفهياً ـ شكلاً من أشكال الترجمة . ووضعت مبادئ عامةٌ للترجمة في مؤلفات خاصّة بعلم الترجمة ، ثمّ ظهرت تخصصات لهذه المبادئ عبّرت عن عمق التجربة الترجمية للمؤلفات العديدة في مختلف ميادين العلوم والمعرفة ، كمبادئ ترجمة الأدب من شعر ونثر ومسرح ، ومبادئ ترجمة النصّ العلمي ، وأنواع شتّى لتقنيات الترجمة وأساليبها ، كذلك فرض ظهورها كعلم مستقلّ معايير هامّة لتدريسها ولا سيّما عملية اختيار النصّ وآلية ترجمته ، وتحقيق التوازن بين الأمانة العلمية والهدف الأساسي للنصّ المطروح »[1] .

لذلك لا نعجب من أن نجد من الأوائل الذين حاولوا تقنين الترجمة وإرساء أسسها كعلم « و رسم معالمها ، ولو باقتضاب ، هو الجاحظ ، فقاده ذلك إلى جولاته المعلومة في مجال البيان ، وقد فعل ذلك باعتباره من أئمة الفكر وزعماء الدين الذين خشوا على تلوث اللغة والملة بفعل الترجمة وكمستعمل للترجمات لا يعرف إلا العربية »[2] .

2 . الترجمة في ظل نبض المثاقفة:

اتخذت الحضارات القديمة والثقافات العالمية الترجمة وسيلة لإيصال صوتها وآرائها لمختلف شعوب العالم ، ورأت فيها آلية ناجعة للتواصل ومد جسور التعاون والتخاطب والتفاهم؛ لأنها تقنية تفك تباين اللغات وتعمل على توحيد خطابها ، وتفعيل التواصل بين مستعمليها مهما تعددت ألسنتهم ، كما ساهمت الترجمة في التعريف بنمط عيش هذه الشعوب وعلومها وفلسفتها وديانتها وتقاليدها وأعرافها ، وكل ما يخصها من قريب أو بعيد .

---

(1) المرجع السابق ، ص 155 .
(2) محمد الديداوي ، الترجمة والتواصل ـ دراسات تحليلية عملية لإشكالية الاصطلاح ودور المترجم ، ص 05 .

و نتيجة لذلك اعتبرت الترجمة « أهم الوسائل المستغلة قديما وحديثا في خلق التلاقح الحضاري بين الأمم والشعوب من خلال منطق الأخذ والعطاء ، الاقتباس والإبداع ، الاستيعاب والإنتاج . . . لكل المظاهر الفكرية ، والمعرفية ، والثقافية التي تعكس بلا شك تصورات مختلفة ورؤيا للعالم متباينة عند الناطقين بها أو الممارسين لها »(1) .

و عليه شكلت الترجمة شرارة التفاعل بين مختلف الثقافات القومية والحضارات المتعددة وراحوا بواسطة قناتها السحرية يتبادلون الأفكار والفلسفات على أساس الاستفادة منها وتوظيفها في تطوير الحياة الإنسانية عموما ، وأضحت الترجمة فعلا ثقافيا ضروريا أملته شروط الاختلاف والتعدد والتباين على مختلف الأصعدة القائمة بين شعوب وحضارات العالم ، لأن هذا التعدد أنتج بالضرورة آلية الترجمة وفعّل عملها وأكسبها القيمة التي تحتلها بالأمس واليوم .

و يشكل الاختلاف والتعدد العامل الأساسي والحساس لوجود وديمومة الترجمة ، فهي مرتبطة بالتنوع الحضاري والثقافي ؛ إذ « لا تهدف كما يقال عادة إلى أن تطابق الأصل ، وأن تحاكيه وتماثله ، بل أن تكرس ثقافة الاختلاف ، وأن تصبح إستراتيجية لتوليد الفوارق ، وبهذا المعنى لا تكون الترجمة ، علامة على تبعية ونقل وتجمد وموت ، وإنما على انفتاح وغليان وتلاقح وحياة » .(2)

إن فعل الترجمة يقارب المثاقفة Acculturation « لأن كلتيهما بحث وسعي نحو ارتياد آفاق مغايرة لأشكال الثقافة المختلفة ، وأسئلة الوجود المتعددة . . . في ظل التعايش الحضاري والتنوع الثقافي ، كما يختزلان (الترجمة والمثاقفة) واقع تعايش الحضارات المختلفة »(3) .

المتأمل في تاريخ التراث الإنساني يلمح أشكال « التلاقح والحوار الحضاري بين الأمم رغم التباينات العرقية والدينية واللغوية والمعرفية ، حيث لعبت الترجمة داخل هذا العبور الثقافي والحضاري دورا طلائعيا في

(1) محمد رشاد الحمزاوي ، المنهجية العامة لترجمة المصطلحات وتوحيدها وتنميطها ـ الميدان العربي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، 1986 ، ص 56 .
(2) عبد السلام بنعبد العالي ، الترجمة والمثاقفة ، مجلة الوحدة ، المجلس القومي للثقافة العربية ، الرباط ، المملكة المغربية ، السنة 6 ، عدد 61 ـ 62 ، 1989 ، ص 8 .
(3) يحيى أبو ريشة ، الترجمة التطبيقية ، ص 25 .

إغناء وإثراء هذه الحضارات ، بما تختزنه سابقاتها من خبرة وتقدم في مجالات وحقول معرفية وفكرية وثقافية مهمة »[1] .

يمكننا اعتبار الترجمة مثاقفة لأنها قناة تتبادل بواسطتها الحضارات مختلف التأثيرات ، وتتجاذب عن طريقها الأفكار والعلوم والعادات والتقاليد ، وقد اعتبرها الباحث الاجتماعي الفرنسي « ميشال دوكستر » Michel de coster « مجموع التفاعلات التي تحدث نتيجة شكل من أشكال الاتصال بين الثقافات المختلفة ، كالتأثير والتأثر والاستيراد والحوار والرفض والتمثل وغير ذلك ، مما يؤدي إلى ظهور عناصر جديدة في طريقة التفكير وأسلوب معالجة القضايا وتحليل الإشكاليات ، مما يعني أن التركيبة الثقافية والمفاهيمية لا يمكن أن تبقى أو تعود بحال من الأحوال إلى ما كانت عليه قبل هذه العملية »[2] .

لقد أثبتت الترجمة جدارتها وأهميتها في تجسيد الحوار ، والتقارب ، والاعتراف بالتنوع الثقافي بين الحضارة العربية الإسلامية ، والحضارة الغربية منذ زمن بعيد ، إذ لا يمكن لأي حضارة الاستغناء عن الترجمة لإعلاء بناءها ، وتشييد أرضيتها العلمية والأدبية ، فلابد من توظيف المثاقفة بواسطة الترجمة ، للاستفادة من مختلف ما توصلت إليه جهود البشر وعبقرية الأمم .

و لنا في الحضارة العربية الإسلامية مثال حي وبارز وعظيم ، ففي لحظة من لحظات بناء صرحها الكبير لم تتقوقع على نفسها ، بل حاولت في إطار المثاقفة ، وعبر حركية الترجمة أن تتفاعل مع الحضارات الأخرى ، وأن تغترف من منابعها في ميادين الفلسفة والمنطق والأدب والنقد والفلك والهندسة والكيمياء والطب ، وغيرها من المجالات ، وعكفت على دراستها وتفسيرها وتمثلها والتعليق عليها وشرحها ، وتصحيح بعض ما ورد فيها ، وأضافت إليها كثيرا من الحقائق والاكتشافات وأسست في ضوء ذلك علوما جديدة ، ظلت مصدر العلم والمعرفة في

(1) شحادة الخوري ، مستقبل حركة الترجمة في الوطن العربي ، مجلة الآداب الأجنبية ، اتحاد الكتاب العرب ، سوريا ، دمشق ، السنة 22 ، العدد 87 ، 1996 ، ص 58 .

(2) Michel de coster , L'acculturation, diogène(Revue), N° 73,1971 , P 15 - 28 et suite .

العالم كله لقرون طويلة »[1] .

فالحضارة الغربية في نهضتها الحديثة تزودت ، واستفادت من نجاحات الحضارة العربية الإسلامية ، لما وصلت إليه من تطور مذهل في جميع المجالات الفكرية ، والسياسية ، والاقتصادية ، والفنية وغيرها ، وتتكيف معها وأضافت إليها لمساتها الإبداعية التي تطورت مع الزمن « ولعل ما نشهده اليوم من تراكمات اقتصادية وتطور مذهل في مجالات شتى من قبيل العلوم البيولوجية ، والتكنولوجية ، والأقمار الاصطناعية ، ومجالات التواصل الرقمية . . . كان نتاجا لذلك التلاقح الحضاري مع الثقافة العربية الإسلامية في لحظة من لحظات التاريخ التي شكلت نقطة تحول في المسار الذي سلكته الحضارة الغربية عموما » .[2]

تلك هي صورة الترجمة ووظيفتها وآداؤها الحقيقي ، فمع كل مثاقفة أو تلاقي وتقارب حضاري وثقافي تضيف وتغني وتثري الموروث الثقافي للأمم ، وليست استلابا أو إسقاطا للهوية والخصوصية ، فالحضارات « كان لها حضور فعلي في إثراء التراث الإنساني لم تغتن من تلقاء ذاتها ، بل من قدرتها على استيعاب عناصر ثقافية أجنبية وإدماجها في تركيبتها ، وتحويلها إلى فعل ثقافي مغاير ، دون أن تتنازل عن مبادئها الثابتة »[3] ولنا مثال في الحضارة العربية الإسلامية ، التي استفادت كثيرا من الثقافات اليونانية ، والفارسية ، والرومانية ، والهندية من خلال التبادل والتواصل بواسطة الترجمة التي جسدت الفعل التثاقفي .

إننا نلاحظ الدور الذي تقوم به الترجمة في بناء الحضارات ، التي تتشكل وتنضج عبر فترات زمنية ، فلكل حضارة أطوار « ومراحل وإن لكل طور ومرحلة شعبا من الشعوب يحمل مشعل الحضارة (. . .) إذ ليس باستطاعة أي شعب أن يحمل هذا المشعل إلى الأبد . . . بل هو يأخذه من شعب سابق ويسلمه إلى شعب لاحق (. . .) مستفيدا من مجمل الإنجازات التي توصلت إليها الشعوب الأخرى قبله » .[4] .

(1) محمود إسماعيل عمار ، معايير متقدمة حول الترجمة في النقد القديم ، مجلة علامات في النقد ، جزء 48 ، مجلد 12 ، 2003 ، ص 81 .
(2) علي شاهين ، العربية لغة العلوم والتقنية ، دار الاصطلاح ، الدمام ، السعودية ، 1983 ، ص 85 .
(3) المرجع نفسه ، ص 85 .
(4) عبد الكريم ناصيف ، الترجمة ـ أهميتها ودورها في تطوير الأجناس الأدبية ، مجلة الوحدة ،

3 . الترجمة وسلطة العولمة:

تشكل العولمة التي نعيشها تحديا كبيرا للبشرية ، لأنها تمتاز بتدفق غزير للمعلومات ، والمعارف الإنسانية ، وبسرعة هائلة ، وقوية في انسيابها ، وتوزيعها للأمم ، يعرّفها وليام جريدر « بأنها آلة عجيبة نتجت عن الثورة الصناعية التجارية العالمية ، وإنها قادرة على الحصاد وعلى التدمير ، وإنها تنطلق متجاهلة الحدود الدولية المعروفة ، وبقدر ما هي منعشة فهي مخيفة ، لا يوجد من يمسك بدقة قيادتها ، ومن ثم لا يمكن التحكم في سرعتها ولا في اتجاهها ، وهي نظام عالمي جديد يقوم على العقل الإلكتروني والثورة المعلوماتية القائمة على المعلومات والإبداع التقني دون اعتبار للأنظمة والحضارات والثقافات والقيم والحدود الجغرافية والسياسية القائمة في العالم »[1] .

تسعى العولمة نحو ثقافة ولغة عالمية موحدة ، ومساهمة « في تكريس عدم التكافؤ التكنولوجي والإعلامي ، ويوجهها في اتجاه تقليص الهوة بين الثقافات المتنوعة ، وبالتالي محاولة صهرها داخل الثقافة العالمية الواحدة ، هي ثقافة القطب الواحد ، ثقافة الآخر الغربي الذي بدأت أسهمه ترتفع على حساب أسهم الثقافات الأخرى ، ومن ضمنها الثقافة العربية »[2] .

لا يمكننا بأي حال من الأحوال إلغاء خصوصية ثقافات الشعوب التي تتميز بها ، وتتفرد بعادات وتقاليد خاصة ، وبتاريخها وببيئتها ، فالأمم غير متاطبقة ثقافيا ، فالتمايز الثقافي ليس امتيازا أو سلبية تحسب على الحضارات ، كما أن الاختلاف لا يلغي التبادل والتحاور والتواصل بينها ، فهو لا يستطيع أن يقطع أواصر الاشتراك بين الشعوب التي تتحد في إنسانيتها .

تجد الترجمة نفسها أمام العولمة ، التي تلغي الثقافة الخاصة من

المجلس القومي للثقافة العربية ، الرباط ، المملكة المغربية ، السنة 6 ، عدد 61 ـ 62 ، 1989 ، ص 57 .

(1) علسان سلاطة ، من الارتباط إلى العقل ـ التحولات العالمية وآثارها على الوطن العربي ، دار النهار ، بيروت ، لبنان ، 2003 ، ص 35 .

(2) عصام نور ، العولمة وأثرها على المجتمع الإسلامي ، مؤسسة شباب الجامعة ، كلية الآداب ، جامعة الزقازيق ، 2002 ، ص 26 .

عادات وتقاليد وأعراف وفنون ودين ، وكل هذه الأبعاد الأساسية للهوية أضحت متلاشية « مع الانفتاح الكبير بين الشعوب وتطور وسائل الإعلام وكثرتها وسرعة انتقال المعلومة والتوسع الكبير للشركات الغربية في كل أنحاء العالم والتي بدأت تروج للأفكار ذات المحتوى الحشوي أو أحادي المعنى بما يتناغم مع الرؤية الغربية العامة ، والأمريكية خاصة »[1] التي تعلي راية السيطرة والإلغاء ، وتسعى للقضاء على خصوصيات الثقافات الأخرى ، لأن العولمة هي حصيلة المستجدات والتطورات التي تسعى بقصد أو من دون قصد إلى دمج سكان العالم في مجتمع عالمي واحد وتحت لغة وثقافة حضارة واحدة .

واستجابةً لتحديات العصر ونظام العولمة الجديد الذي غزا العالم ، وتعزيزاً للانسجام المتزامن مع هذه المتغيرات العالمية ، فقد تنبّه منظرو الترجمة والمفكرون اللغويون إلى طرح عدة أسئلة جديرة بالإجابة ، مفادها ما موقع الترجمة من العولمة والوضع الثقافي العالمي ؟ وكيف نتعامل بنجاح مع الوضع القائم ؟ لذلك ألّف مايكل كرونن (Cronon 2003) وغيره من المهتمين بهذا المجال ، كتاباً بعنوان « الترجمة والعولمة » حيث تطرّق فيه إلى دور المترجمين الجديد والمتجدد ، وطرق فهم هذا الدور بين المجتمعات الكونية واقتصادياتها ، وتفعيل التعامل مع التعددية الثقافية واللغوية؛ هاتان المسألتان اللتان تحيطان بالعالم ، بل وتزداد دائرة توسعهما ، بالمجتمعات شيئاً فشيئاً ، إذ تطرّق الكاتب أيضا إلى معالجة مواضيع الترجمة والاقتصاد الكوني كنموذج عن الترجمة اللاأدبية ، وإلى العولمة والجغرافية الجديدة للترجمة ، وإلى العولمة وسياسة الترجمة الجديدة ، ثم عالج واقع الترجمة ولغات الأقليات في التوزيع الكوني للمجتمعات .

تشير المعطيات الحالية أن سلطة العولمة اكتست العالم ، بحيث الوضع يتجه نحو ثقافة الهيمنة ، والاختراق ، وعدم المبالاة بالخصوصيات الحضارية ، والهوية التي يتميز بها شعب عن آخر ، والاتجاه نحو إلغاء تعدد الحضارة والفكر واللغة لصالح حضارة وفكر وثقافة واحد ، بدلا من فعل المثاقفة والتعايش بواسطة التبادل المحترم والمخير ، وفي ظل هذه

(1) حكيمة بوبعيو ، واقع العولمة وأبعادها ـ دراسة في المتغيرات ، مجلة منتدى الأستاذ ، المدرسة العليا للأساتذة بقسنطينة ، الجزائر ، العدد 03 ، أفريل 2007 ، ص 209 .

السلطة « أصبحت الترجمة تنتقل هي الأخرى من التعريف بالثقافات المتنوعة والمتعددة إلى الاقتصار فقط على تعميم ثقافة القطب الواحد ولغته ، وهذا ما حدا بالرئيس الفرنسي شيراك إلى الدعوة لدى افتتاحه منتدى حول تحديات العولمة في مارس 2001 للتصدي لهيمنة اللغة الإنجليزية » .[1] .

إن الترجمة في ظل هذا الواقع السلطوي للعولمة ، تبتعد عن وظيفتها وأهميتها فهي « ترادف التعدد إذا انطلقت من اعتبار تمايزي ، وهي بهذا المفهوم تحيد عن مسار خطاب العولمة الذي يتأسس التوحيد والإلقاء . هل يعني ذلك أن تقف الترجمة في خط التفكيك »[2] .

إن العولمة الكاسحة تهدد حضور بعض اللغات والثقافات الأخرى ، التي تشكل حلقة مهمة في التاريخ الإنساني « ليس فقط داخل المشهد الغربي ، بل وحتى ضمن المشهد العالمي ، فإن الأمر بالنسبة للغة والثقافة العربية يزداد سوءا نظرا لتقلص دورها في السياق الحضاري » .[3] ويرجع ذلك إلى عجز الثقافة العربية عن مواكبة التطور العلمي والفكري والحضاري الإنساني ، وهذا يعود إلى لعدم نشاط فعل الترجمة ، لأنها مفتاح المرور للمثاقفة والضوء الأخضر للمساهمة في جلب كل المعارف والمكتسبات العلمية ، لتطعيم وإغناء اللغة والثقافة العربية بما توصل إليه التراث والمجهود الإنساني ، وبعث مخزونها وقوتها الحضارية والثقافية التي كانت فيما مضى مصدر كل تطور عالمي .

و لا يخالفنا أحد في وجود تكالب وتواطؤ على إلغاء اللغة العربية ، كآلية وعنصر في الترجمة ، وخاصة الترجمة الآلية في مواقع الترجمة بشبكات الإنترنت ، حيث تكاد لا تذكر في كثير منها ، وإن وجدت فهي محتشمة قاصرة أو معطلة ، بيد أن أغلب لغات العالم لها حضور قوي وفعال في الثقافة الغربية . إن هذا التوجه الذي تسير فيه العولمة إنما هو تأكيد على سيادة لغات ، وثقافات بعينها على حساب أخرى ، وسعي لإلغاء لغات معينة لمحاولة سلب هوية أصحابها ، واحتوائهم ، وفرض

(1) ممدوح محمد منصور ، العولمة ـ دراسة في المفهوم والظاهرة والأبعاد ، الجامعة الجديدة للنشر ، الإسكندرية ، مصر ، 2003 ، ص 23 .
(2) رشيد برهون ، الترجمة ورهانات العولمة ، عالم الفكر ، عدد 01 ، المجلد 31 ، ص 166 .
(3) عصام نور ، العولمة وأثرها على المجتمع الإسلامي ، ص 27 .

ثقافة جديدة غريبة عليهم ، وهذا ما يدل بكل جرأة على طموح العولمة التي تسعى لبسط قبضتها « على المنظومة الرمزية (الرموز الثقافية ، أدوات التواصل وآليات التواصل والمعرفة) من خلال فرض نوع من السيادة أو الهيمنة الثقافية الغربية القهرية على المعالم ككل ، أو بعبارة أخرى فإن العولمة الثقافية هي نوع من الاختراق الثقافي العنيف والمسلح بتكنولوجيا متطورة للاتصال يستهدف إنكار أو إقصاء ثقافة الغير »[1] .

و قد أكدت دراسة « لبرنامج الأمم المتحدة للبيئة نشرت في سنة 2001 أن نصف اللغات المحلية في العالم في طريقها للزوال ، وحذرت الدراسة من أن تسعين بالمائة (90%) من اللغات المحلية سوف تختفي في القرن الحادي والعشرين » .[2] .

تعد حمولة اللغة في أي حضارة من الحضارات ثقيلة ومهمة جدا ، لأنها تمثل الهوية والثقافة والكيان لأي أمة من الأمم ، ففي وجودها تعيش ومن نسيمها تتنفس ، فحياتها رهينة بها فأي مساس لوجودها ، أو تقليص لدورها أو محاولة « تهميشها أو حتى إقبارها ، هو بمثابة تهميش أو إقبار لثقافة ولهوية ولرؤية العالم ، وهو ما ترتب عنه تقليص لدور الترجمة ، باعتبارها رديفة التعددية والتنوع ، التعددية بأوجهها المختلفة ؛ التعدد الثقافي ، تعدد اللغات ، تعدد المعاني والدلالات ، تعدد التأويلات والقراءات ، تعدد الترجمات ، الخ . وعليه فإن الترجمة باعتبارها الوجه الآخر للمثاقفة نجدها على طرفي نقيض مع منطق العولمة الرامي إلى تأليف ثقافة ذات بعد واحد »[3] .

لقد أدت الترجمة دورا مهما في عصور سابقة ، وتمثل في إقامة جملة كبيرة من الحوارات الحضارية ، والتواصل ، والتقارب بين الثقافات بمختلف مميزاتها ، وخصوصياتها عن طريق سحر نبض المثاقفة ، لكن هذا الدور المنوط بها قد تقلص في عصرنا الحالي تدريجيا ، وذلك بتقلص حضور لغات وثقافات متعددة في الساحة العالمية ، وهذا بفعل السلطة الكاسحة للعولمة التي من أهدافها إلغاء الآخر ومصادرة « حق التعايش

(1) حكيمة بوبعيو ، واقع العولمة وأبعادها ـ دراسة في المتغيرات ، ص 210 .
(2) رشيد برهون ، الترجمة ورهانات العولمة ، ص 166 .
(3) رشيد برهون ، درجة الوعي في الترجمة ، منشورات مكتبة سلمى الثقافية ، تطوان ، المملكة المغربية ، 2003 ، ص 27 .

وحق الاختلاف والتنوع . بمعنى أن الترجمة وهي تطمح إلى خلق ثقافة المثاقفة تسعى إلى أن تحقق التعددية ، هذا في الوقت الذي تحاول فيه العولمة تقليص هذه التعددية وإرجاعها إلى وحدة ، أو اختزال التعدد داخل الوحدة . وإذا كانت الترجمة في ظل المثاقفة تمثل إضافة ، فإنها في حضن العولمة تنحو لأن تصير استلابا »[1] .

فدعاة العولمة يفرضون سلطتها من خلال التوظيف الخاطئ لفعل الترجمة ، وطموحهم الزائف هو السعي « لقيام ثقافة عالمية ، فإن دعوة كهذه قد تشكل خطرا في ظل عدم التكافؤ التكنولوجي والإعلامي والمعرفي ، ولا يتحقق التفاعل الثقافي بين الحضارات المختلفة والمتنوعة لإغناء الثقافة العالمية إلا بقبول التكافؤ الثقافي وضمانه ورعايته »[2] .

فعدم وجود التكافؤ بين عالمين مختلفين ، يجعل فعل الترجمة سلبيا وذلك ناتج عن تسلط وهيمنة الطرف الغالب فتبتدع غالبا الوسائل والآليات المكافئة للهدف المرسوم وتتناسب هذه الآلية مع أهمية هذا الهدف ، وفيما يخص الهوية فإن مسار الهيمنة والدفع نحو التحول نحو الآخر يتم بالتلاعب بالمفاهيم والقيام بتحديد مضامينها حيث يتلقاها الطرف المغلوب بوصفها حقائق مما يؤدي إلى عقم خياله الإبداعي .

فالتعادل الثقافي يؤهل الترجمة لأن تقوم بدورها الفعال ، الذي تحاول العولمة طمسه ، وتحويله إلى ثقافة عالمية موحدة ، تهيمن عليها ثقافة القوي المتسلط ، فتعمل الترجمة مثل عهدها الأول ، في عالم يسوده الاعتراف بالتنوع الثقافي ، واحترام الخصوصيات الحضارية ، وتوقير العادات والتقاليد ، وعدم محو طقوس وأعراف الأمم ، واحترام لغتها بكل جزئياتها وتثمين موروثها المتنوع بمختلف مشاربه ومصادره وظواهره وأشكاله .

4 . الترجمة والأيديولوجيا :

لا يمكن لهذه التقنية العملية الفنية أن تنعزل عن أضواء الأيديولوجيا ، ولم تستطيع الانفلات منها ، فقد ارتبطت بها منذ زمن بعيد حيث ربط بعض الدارسين نشأتها بالحاجة التبشيرية التي كانت تمارسها

(1) ممدوح محمد منصور ، العولمة ـ دراسة في المفهوم والظاهرة والأبعاد ، ص25 .
(2) ثريا اقبال ، الترجمة والمثاقفة ، مجلة العربية ، الكويت ، عدد 22 ، 1999 ، ص 45 .

الأديان فيما سبق ، أما أنتوني بيم فقد ذهب « بعيدا وهو يتتبع انبثاث الأيديولوجيا داخل الترجمة واتجه نحو المترجم بدل الاتجاه إلى فعل الترجمة ذاته ، لأن الأيديولوجيا ليست إلا المنطلق الذي يتبناه المترجم في اشتغاله بين حدود الثقافات واللغات ، ومن ثم عالج عدة إشكاليات تتعلق خصوصا بالمترجم والانتماء ، فقد دلت عدة أحداث يمثل لها بترجمة أعمال سلمان رشدي ، على أن الترجمة ليست عملا محايدا ، بل هي انتماء وتموقع ومن ثم يتساءل عن إمكانية أن يقف المترجم بين الثقافات لا داخلها » .(1) .

علينا معرفة تاريخ الترجمة وعلاقتها بالنشأة القومية من خلال الأنموذج الألماني ، وذلك بالاعتماد على شلاير ماخر ، في نظرته علاقة الترجمة بالقومية والآخر فالترجمة « الحرفية إبقاء على الآخر متميزا متخندقا داخل خصوصياته مما يجعل المترجم حارسا على الحدود بين الكيانات الثقافية والعرقية »(2) .

إن نموذج شلاير ماخر يجسد البعد الأيديولوجي في الترجمة ، التي يوجهها عكس وظيفتها الأساسية في ظل المثاقفة والتواصل والتراسل بين الحضارات ، فالأيدولوجيا تحصر الفعل الترجمي في الأحادية ، وفرض السيطرة الموجهة في حين يكون دورها لصالح تقوية العلاقات الحضارية والثقافية والاجتماعية بين الأمم بمختلف مشاربها وتوجهاتها .

يعرف شلاير ماخر فعل الترجمة بناء على المترجم ونظرته للنص والكاتب في آن واحد فهو « إما أن يدع المترجم الكاتب مستريحا إلى الحد الممكن ويسعى إلى جلب القارئ إليه ، وإما أن يدع القارئ مستريحا إلى الحد الممكن ويجعل الكاتب هو الذي يذهب إلى ملاقاته »(3) .

فعمليات الترجمة تخضع لمقاييس وطنية لا تحيد عنها ، فالطريقة الفرنسية تقضي بتجنيس الأجنبي وإدماجه في الثقافة المحلية ومسح كل تمييز وخصوصية ، لكن شلاير ماخر لا يتعامل مع الطريقة الفرنسية التي تتوسع في الترجمة ، وتساند الترجمة الحرفية المطابقة للنص ، وهي نزعة الاندماجية ، تذوب فيها الذات وتسعى لإذابة التمايزات المختلفة ، عكس

(1) جمال حضري ، الترجمة والمثاقفة ، مجلة حوليات التراث ، جامعة مستغانم ، العدد 05 ، السنة 2006 ، ص 51 .

(2) Anthony Pym , Pour une éthique du traducteur, PUF, 1997, pp . 16 .

(3) جمال حضري ، الترجمة والمثاقفة ، ص 52 .

الطريقة الألمانية التي تتجه نحو التمايزية ، فكلاهما يتجه نحو بناء الهوية الوطنية والحفاظ على مقوماتها .

في ظل هذه الأيديولوجيا التي تلتف بالترجمة وتعطيها بعدا آخر قد يخرجها عن آدائها الحضاري ، تبرز المثاقفة التي تحاول أن تجمع بين فكرة الانتماء إلى موروث إنساني ومصير مشترك واحد ، والأرض التي تمثل بعدا تاريخيا ، وتسعى إلى دمج مختلف الثقافات الأخرى ، وثقافة متجهة إلى الخارج تجتهد في إدخال « فكرة المسافة في الانتماء ، وتفضل علاقة الدم على علاقة الجغرافيا ، والهدف واضح في أن شلاير ماخر يريد التركيز على جعل الألمانية لغة عالمية لأنها تحافظ على تمايز الآخر »(1) .

فهذا التوجه الذي يطرح فكرة مفادها أن وجود الإبداع الخلاق ، لا يكون إلا في حيز اللغة الواحدة والثقافة الأم ، والترجمة في هذا الإطار تمنح الوطنية الثقافية ، والحدود الفاصلة بين اللغات ، وخصوصيات المجتمعات بتفكيرها ، وعاداتها ، ونظمها الدينية والاجتماعية والسياسية قوة « وقد فهمت أوروبا باكرا العلاقة بين عامل الهوية وآلية الترجمة ، ففرقت بين الترجمة الأدبية ، وغيرها بما يسمح بالفصل بين الأعمال البانية للهوية الوطنية وبين الوظائف التجارية ما بين الثقافات ولذلك نرى جهدا ضخما لتكوين تراجمة المحاضرات وإهمال تكوين التراجمة الاجتماعيين »(2) .

كان تفعيل آلية الترجمة من أجل الاهتمام باللغات الوطنية ، وتغليبها على أي هيمنة خارجية ، وذلك بتقويتها وتحصينها بواسطة الترجمة الأدبية التي تعمل على تقوية « الوطنيات لأن الأدب يدخل في تشكيل الهوية ، ولذلك تعرض فيه الترجمة على أنها مستحيلة ويجب أن تكون غير أمينة . ، وهنا نلتقي مع منظور شلاير ماخر في الحفاظ على الوطني من خلال الإبقاء على تمايز الأجنبي فالحرفية والخيانة كلاهما يصبان في نفس المصب ألا وهو الحفاظ على التمايز ، وكلاهما مناهض لمسار الكونية والمثاقفة »(3) .

(1) المرجع السابق ، ص 53 .
(2) المرجع نفسه ، ص 53 .
(3) المرجع نفسه ، ص 53 .

مراجع البحث: 1 ـ عربية ودوريات :

1ـ أحمد جوهري ، درس الترجمة ـ نحو منهجية متماسكة لديداكتيك الترجمة العلمية ، مطبعة مصعب ، مكناس ، المغرب ، 1995 .

2ـ ثريا اقبال ، الترجمة والمثاقفة ، مجلة العربية ، الكويت ، عدد 22 ، 1999 .

3ـ جمال حضري ، الترجمة والمثاقفة ، مجلة حوليات التراث ، جامعة مستغانم ، العدد 05 ، السنة 2006 .

4ـ حكيمة بوبعيو ، واقع العولمة وأبعادها ـ دراسة في المتغيرات ، مجلة منتدى الأستاذ ، المدرسة العليا للأساتذة بقسنطينة ، الجزائر ، العدد 03 ، أفريل 2007 .

5ـ رشيد برهون ، الترجمة ورهانات العولمة ، عالم الفكر ، عدد 01 ، المجلد 31 .

6ـ رشيد برهون ، درجة الوعي في الترجمة ، منشورات مكتبة سلمى الثقافية ، تطوان ، المملكة المغربية ، 2003 .

7ـ شحادة الخوري ، مستقبل حركة الترجمة في الوطن العربي ، مجلة الآداب الأجنبية ، اتحاد الكتاب العرب ، سوريا ، دمشق ، السنة 22 ، العدد 87 ، 1996 .

8ـ عبد السلام بنعبد العالي ، الترجمة والمثاقفة ، مجلة الوحدة ، المجلس القومي للثقافة العربية ، الرباط ، المملكة المغربية ، السنة 6 ، عدد 61 ـ 62 ، 1989 .

9ـ عبد الكريم ناصيف ، الترجمة ـ أهميتها ودورها في تطوير الأجناس الأدبية ، مجلة الوحدة ، المجلس القومي للثقافة العربية ، الرباط ، المملكة المغربية ، السنة 6 ، عدد 61 ـ 62 ، 1989 .

10ـ عصام نور ، العولمة وأثرها على المجتمع الإسلامي ، مؤسسة شباب الجامعة ، كلية الآداب ، جامعة الزقازيق ، 2002 .

11ـ علسان سلاطة ، من الارتباط إلى العقل ـ التحولات العالمية وآثارها على الوطن العربي ، دار النهار ، بيروت ، لبنان ، 2003 .

12ـ علي شاهين ، العربية لغة العلوم والتقنية ، دار الاصطلاح ، الدمام ، السعودية ، 1983 .

13ـ محمد الديداوي ، الترجمة والتواصل ـ دراسات تحليلية عملية لإشكالية الاصطلاح ودور المترجم ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط 1 ، 2000 .

14ـ محمد الديداوي ، علم الترجمة بين النظرية والتطبيق ، دار المعارف للطباعة والنشر ، سوسة ، تونس ، 1992 .

15ـ محمد رشاد الحمزاوي ، المنهجية العامة لترجمة المصطلحات وتوحيدها وتنميطها ـ الميدان العربي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، 1986 .

16ـ محمد عطية ، علم الترجمة ـ مدخل لغوي ، دار الثقافة الجديدة ، القاهرة ، مصر ، 1986 .

17ـ محمود إسماعيل عمار ، معايير متقدمة حول الترجمة في النقد القديم ، مجلة علامات في النقد ، مجلد 12 ، يونيو 2003 .

18ـ ممدوح محمد منصور ، العولمة ـ دراسة في المفهوم والظاهرة والأبعاد ، الجامعة الجديدة للنشر ، الإسكندرية ، مصر ، 2003 .

19ـ ياسر إبراهيم ، الترجمة بين الاستقلالية والتبعية ـ اعتباطية مفهوم الترجمة كعلم مستقل ، مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية ، سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية ، سورية ، المجلد 29 ، العدد 1 ، 2007 .

20ـ يحيى أبو ريشة ، الترجمة التطبيقية ، دار الهلال للترجمة ، إربد ، عمّان ، 1999 .

2ـ مراجع أجنبية:

21 - Anthony Pym , Pour une éthique du traducteur, PUF, 1997.

22 - LAROSE Robert, Théories contemproaines de la traduction,4 ـ Presses de l'Université du Québec, 2ème édition, 1989.

23 - Michel de coster , L'acculturation, diogène(Revue), N° 73,1971 .